المصدر: المجلة
التاريخ: 1 سبتمبر 1999م

المسلمون اليوغوسلاف في خطر!

اوروبا مشغولة بإنهاء الصراع بين الارثوذوكس والكاثوليك في يوغوسلافيا، ولا نعرف احدا يشغله هم ستة ملايين مسلم، مرشحين ليكونوا ضحايا حسم ذلك الصراع!

لان هناك ارادة غربية، فان الطرف الاوروبي يبذل جهودا مكثفة ودؤوبة لحل مشكلة الصراع، وفي غيبة ارادة اسلامية حقيقية فان مشكلة الضحايا المنتظرين لم يتوافر لها حتى الآن طرف ينهض بها ويبحث لها عن حل، او يمارس لأجلها أي ضغط.

نعم، لقد تلقى مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الذي انعقد في استنبول خلال شهر اغسطس (آب) الماضي، مذكرة استغاثة حول الموضوع، من يعقوب سليموسكي، احد أبرز القيادات الاسلامية في البوسنة والهرسك، وهي الجمهورية التي يهدد الخطر مسلميها. ورغم اننا لا نعرف بالضبط مصير تلك المذكرة، الا اننا لم نر - حتى الآن - فعلا يوحي بأن الأمر أخذ مأخذ الجد من قبل المؤتمرين، واكثر ما نخشاه ان يكونوا قد استقبلوا مذكرة المسلمين اليوغوسلاف بحسبانها للعلم فقط وليس للتصرف!

إزاء ذلك، وحتى إشعار آخر، فان الملف سيظل مفتوحاً، والخطر سيبقى ماثلا. اما الاستغاثة التي اطلقها اولئك الموحدون المتحنون الذين يمثلون اكبر تجمع اسلامي في اوروبا، فستأخذ مكانها في الملف باعتبارها شهادة علينا جميعا، تثبت في جانبنا التقصير، بل والقصور أيضا.

لقد تلقيت في الاسبوع الماضي رسالة من الشيخ حمدي يوسف، المفتي وامام مسجد بلجراد تدعوني الى معاودة الكتابة عن مشكلة المسلمين اليوغوسلاف، حتى تظل محنتهم حية في أذهان العرب والمسلمين، كي لا نرتكب بحقهم إثما آخر، فننسى قضيتهم، بعد إذ عجزنا عن ان نقدم لهم عملا مفيداً.

ورغم ان الرسالة تنم عن شعور بالاحباط الشديد، حيث تضاءل طموح المسلمين اليوغوسلاف وتراجع أملهم فينا، حتى صاروا يطلبون منا - فقط - ان نحتفظ لهم بمكان في الذاكرة، الا انها وصلتني بينما كنت اتأهب للكتابة في الموضوع، خصوصا بعدما توالت الانباء حديثا عن قرار الغرب الاعتراف باستقلال بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وجمهوريات البلطيق في المقدمة منها، فقد نبهني ذلك الى ان المحظور يوشك ان يقع، وان تلك سابقة لا بد ان تفتح شهية جمهوريات يوغوسلافيا للمضي قدما على طريق الاستقلال والانفصال، وهو ما يعني ان الفصل الاخير من محنة المسلمين هناك بصدد الابتداء، وان تمزيقهم وابتلاعهم تمهيداً للتخلص منهم نهائياً، ذلك كله قادم على الطريق، وهي مسألة وقت لا أكثر!

▣ سجل مخضب بالدم

لماذا؟

لأن ثمة مخزونا من المرارات والاحقاد القديمة لم ينسه أحد، واثاره مازالت تنضح على الواقع بين الحين والآخر، بحيث لا تتيح مجالاً كافياً للتفاؤل والانتظار الخير في ظل أي تفكيك للاتحاد اليوغوسلافي وانفراط عقد جمهورياته الست.

ففي اعقاب وصول العثمانيين الى البلقان، ودخولهم الى صربيا والبوسنة في العام ١٤٦٣م، قدر للاسلام ان ينتشر بين البوسنويين بصورة اكبر، وتبعهم جيرانهم سكان الهرسك، حيث كان ابناء المنطقتين يعتنقون مذهبا مسيحيا خاصا عرف باسم «البوجوميلية» اختلف عن المذهب الارثوذوكسي السائد في صربيا وازاء انتشار الاسلام في البوسنة والهرسك، فان الدولة العثمانية التي ظلت في البلقان اكثر من اربعة قرون، قررت ضم المنطقتين اليها ضماً نهائياً، واعتبارها ولاية عثمانية يطبق عليها القانون العثماني وتعفى من الجزية

والمعروف ان الدولة العثمانية لم تضم أيا من دويلات وممالك البلقان، ولم تفرض على شعوبها تغيير دينهم، وتركت لهم ممارسة شعائرهم، مكتفية بفرض الجزية والضرائب.

وفي ظل الوضع الجديد للبوسنة والهرسك، التي كان سكانها من أصول صربية وكرواتية في الأساس، صارت الولاية منطقة جذب للمسلمين، حيث استوطنت فيها اعداد اخرى من الموحدين، الاتراك والالبان والاروام والمجريين،

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

وبمضي الوقت امتزج الوافدون مع المقيمين استناداً الى وشيجة الاسلام، حتى شكلوا شعبا واحدا وقومية واحدة غلب في ظلها الانتماء الديني على الجذور العرقية.

وعندما ضعف شأن الدولة العثمانية، وتراجع سلطانها في «الدوميللي»، وهو القسم الاوروبي في الامبراطورية، تلاحقت الثورات القومية في المنطقة داعية الى الانفصال والاستقلال، حتى تم لها ما ارادت في الربع الاخير من القرن التاسع عشر. فحولت الولايات اليوغوسلافية الى ممالك، واضطرت السلطة العثمانية الى التنازل عن البوسنة والهرسك، والاعتراف باحتلال المجر لها. وظل الامر كذلك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

ومن الثابت تاريخياً ان المجر عاملت رعاياها من البوسنة بقسوة بالغة ونادرة، حيث كانت تنتقم لاربعة قرون من الصراع مع العثمانيين، الذين هددوا فيينا خلالها مراراً.

والمعروف ان شرارة الحرب العالمية الاولى قد اندلعت من قلب البوسنة البائسة، حيث كان ولي العهد النمساوي يزور مدينة «سارايفو» عاصمة الولاية مع خطيبته في عام ١٩١٤. فاغتاله في أحد الشوارع مواطن بوسنوي من اصل صربي، الامر الذي أدى الى اعلان امبراطورية النمسا ـ المجر الحرب على مملكة صربيا، ولم تنته الحرب الا وقد تحطمت الامبراطورية ونزعت منها املاكها، فاستقلت المجر وأصرت الدول الاخرى على إلحاق البوسنة والهرسك بصربيا، التي كانت تتزعم انذاك مشروعاً أيدته الدول الاوروبية، يقضي باقامة مملكة كبيرة تضم مع صربيا كرواتيا وسلوفينيا.

وطوال عشرين عاما من الالحاق، اي في الفترة مابين الحربين العالميتين، لم تعترف صربيا بكيان خاص للبوسنة والهرسك، او بشعب مستقل فيها، وانما كانت تعتبر البوسنة جزءا من مملكة صربيا دون غيرها، وكانت كرواتيا تنافسها على ملكية اجزاء من البوسنة، حيث تنتشر الاقلية الكرواتية.

وعندما انفرط عقد المملكة اليوغوسلافية إبان الحرب العالمية الثانية، وانخرطت صربيا وكرواتيا في حرب أهلية ضارية بينهما، فانهما اقتسمتا بالقوة اراضي البوسنة والهرسك فيما بينهما.

غير ان الذي لا يمكن ان ينسى، ان مرحلة العشرين عاما تلك، التي خضعت فيها البوسنة للسيطرة الصربية، بعد المجرية، لاتزال مخضبة بالدم ومحللة بالحزن في الذاكرة الاسلامية، حيث مارس الصربيون منذ لحظة القبض على السلطة في البوسنة أبشع صور الاضطهاد والقهر بحق سكانها المسلمين.

يذكر في هذا الصدد ان صحيفة «لوتومب» الفرنسية نشرت حديثا لرئيس العلماء المسلمين في يوغوسلافيا، الشيخ جمال الدين تشاوشفيتش، قال فيه انه خلال السنة الاولى من حكم الصرب للبوسنة والهرسك، تم احراق وتدمير ونهب ٢٧٠ قرية، وقتل آلاف المسلمين.

وفي عام ١٩٨٩، نشرت صحيفة «بوربا» اليوغوسلافية كتابا على حلقات، يتحدث بالوثائق والبيانات الدقيقة عن المجازر الدموية التي ارتكبت ضد المسلمين في البوسنة في تلك الحقبة، الامر الذي سبب صدمة قوية للرأي العام اليوغوسلافي بأجمعه.

ومن الثابت أيضا ان عمليات الاضطهاد في تلك الحقبة أدت الى نزوح حوالي ٣٠٠ ألف مواطن مسلم من البوسنة والهرسك الى خارج يوغوسلافيا، هربا من الواقع البائس الذي كانوا محاصرين فيه.

وفي غمرة الاقتتال الذي نشب في كل مكان اثناء الحرب العالمية الثانية، قامت قوات الجنرال دراجا ميخائليوفيتش، التي كانت الجناح العسكري للمنظمة القومية الصربية الشهيرة «تشتنيك» بقتل عشرات الآلوف من المسلمين، بحجة الدفاع عن المملكة الصربية (كان ذلك حافزا لمسلمي البوسنة للالتحاق بقوات الجنرال تيتو الفدائية التي حملت اسم «الانصار»، وقاتل بها الاحتلال النازي والفطرسة الصربية في ذات الوقت، تمهيدا لاقامة يوغوسلافيا جديدة).

وعندما انتصر تيتو وحقق مشروعه اليوغوسلافي الجديد بعد الحرب العالمية الثانية، ضمن الدستور اعترافا بخمسة شعوب فقط في يوغوسلافيا (الصرب والكروات والسلوفينيون والمقدونيون، والمونتجريون سكان الجبل الاسود)، ولم

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

بقلم فهمي هويدي

يعترف للبوسنويين بأي كيان مستقل!

احتاج الامر الى وقت طويل، ونضال مرير، لكي يعترف بكيان الشعب البوسنوي، ولتصبح البوسنة والهرسك جمهورية لها سرعيتها في الاتحاد اليوغوسلافي، حيث تقرر ذلك في الدستور الصادر عام ١٩٧١، اي بعد اكثر من ربع قرن من انتهاء الحرب العالمية الثانية.

لكن ذلك لم يطو صفحة المرارات ولا اسقط عداء الصرب خاصة وكراهيتهم للمسلمين، وهم الذين لايزالون يرددون نشيدا يقول في مطلعه: من سيكون الثاني؟ . فانا الاول الذي اشرب الدم التركي (كل مسلم عندهم تركي دخيل، ولا يمكن ان يعد أصيلا في البلاد!).

▣ كلهم يخزنون السلاح

بعد المتغيرات التي شهدتها اوروبا الشرقية، وانهيار المعسكر الاشتراكي والشيوعية من بعد، حدث تطوران مهمان في يوغوسلافيا.

اولها ان رياح التعددية السياسية هبت على البلاد، وظهرت الاحزاب الاسلامية في البوسنة والهرسك، وكان اهمها حزب العمل الديمقراطي الذي رأسه المحامي المناضل علي عزت بيجوفيتش وفي اول انتخابات حرة شهدتها الجمهورية في نوفمبر (تشرين الاول) من العام الماضي، فاز حزب العمل بالاغلبية حيث حصل على ٣٥٪ من الاصوات، بينما حصل حزب الصروات على ٢٨٪ وحزب الكروات على ١٨٪. وفي ضوء هذه النتيجة، فقد تولى الحزب الاسلامي رئاسة الحكومة وعهد اليه بتشكيلها، بينما نصب المحامي علي عزت رئيسا للجمهورية، الامر الذي اثار حفيظة الصرب والكروات معا.

التطور الثاني المهم ان كرواتيا اعلنت عن رغبتها في الاستقلال عن الاتحاد اليوغوسلافي، بعدما استشعرت تنامي الهيمنة الصربية، ونزوع قادتها الى حلم صربيا الكبرى، وهو ما تدعو اليه الآن صراحة أطراف عديدة بين القوميين الصرب، خصوصا منظمة «تشيتنيك» المتطرفة التي ظهرت إبان الحرب العالمية الثانية، وزعيمها الحالي فويسلاف سيسيلي، يشير آخرون الى ما سمي «بالمذكرة» التي أعدها نفر من السياسيين والاكاديميين الصربيين، التي تنطلق من فكرة «كل صربي في صرب واحدة»، وتقول ان يوغوسلافيا قسمت الصرب بين ست جمهوريات وانه قد آن الاوان لتجميع تلك الشتات، واحياء الوعي القومي الصربي.

في ظل هذه الحساسية فان الصرب يتهمون الكرواتيين بان لهم ميولا فاشية، حيث تواطأت «الاوستاشا» الكرواتية مع النازيين خلال الحرب الثانية، وخلفت ممارسات تلك المرحلة ذكريات مريرة لدى الجميع، ويتداول الصربيون حتى الآن تصفير الرعب الذي عاشوا في ظله والوحشية التي عوملوا بها من جانب الكرواتيين اثناء فترة الحرب.

في المقابل، فان الكرواتيين يشبهون دعوات الصرب الى احياء قوميتهم والتوسع على حساب الآخرين باسم الوحدة، باعتبارها تصرفات تكشفت عن ميول نازية، ويذكرون بجرائم منظمة «تشيتنيك» خلال الحرب الثانية، ويشيرون الى اعمال العنف المتزايدة التي ترتكب ضد الكرواتيين حاليا قائلين إن النازية الصربية لا حدود لها.

«لن نغادر .لمسنا اكراد!»:

الخطر الذي يتهدد مسلمي البوسنة والهرسك يتمثل فيما يلي: ان صربيا الكبرى التي يخطط لاحيائها تمثل جوراً طبيعياً على حدودها، حيث تعيش اقلية صربية ارثوذوكسية في تلك الجمهورية، ثم ان كرواتيا المستقلة تؤدي بدورها الى اقتطاع جزء من البوسنة، لان هناك ايضا اقلية كرواتية كاثوليكية تعيش جنباً الى جنب مع المسلمين.

بعبارة اخرى، فان تفكيك الاتحاد اليوغوسلافي سيؤدي بالضرورة الى تقسيم البوسنة والهرسك وتشتيت مسلميها، وابتلاعهم بعضي الوقت ضمن غيرهم من المسلمين اليوغوسلاف، في مقدونيا وكوسوفو.

ومشكلة البوسنة والهرسك انها واقعة جغرافيا بين شقي الرحى، فصربيا تتمدد على يمينها، بينما كرواتيا فوقها وعلى يسارها. لكن مشكلتها الكبرى تتمثل في انها تمثل وعاء يضم مختلف القوميات اليوغوسلافية، وفي مقدمتها الصربيون والكروات.

وفي ظل النزاع الراهن بين الطرفين الاخيرين، انتقل التوتر الى البوسنة والهرسك، حيث هب ابناء كل قومية استعدادا للدفاع عن انفسهم، كما هب

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

المسلمون للحفاظ على كيانهم ضد التقسيم المنتظر.

النتيجة ان كل طرف اتجه الى تسليح نفسه تحسبا لاي احتمال. وفيما اصدر زعماء المسلمين والمسيحيين بيانات ناشدوا فيها طوائفهم التزام الهدوء، فان التقارير الصحفية ذكرت ان الاسلحة مازالت تتدفق على البوسنة والهرسك، وان الاحداث تتسارع في عاصمتها سراييفو، مما يهدد بانفجار الوضع. بل ان ثمة تقارير اشارت الى ان التوازن الهش بين مختلف القوميات قد انهار فعلا في البوسنة بشكل مؤثر. فالكرواتيون يؤيدون انفصال جمهوريتهم وجمهورية سلوفينيا عن الاتحاد اليوغوسلافي. والصربيون يدافعون عن غزو الجيش الاتحادي لهاتين الجمهوريتين. وتخلى الائتلاف الحاكم عن اي ادعاء بالتعاون، ولم يعد البرلمان قادرا على الاتفاق على جدول اعمال لجلساته. كما وقع احد اعضاء البرلمان أسيرا عندما كان ضمن قافلة من السيارات تحمل اسلحة وتتجه نحو شرق الهرسك.

أضافت تلك التقارير ان الاوضاع تتأزم في البوسنة يوما بعد يوم. فيما تنقسم قوى الأمن وأجهزة الدولة الأخرى على طول خطوط التماس الطائفية، وينادي دعاة القوميات المختلفة في زغرب وبلغراد بضم البوسنة والهرسك الى كرواتيا او الصرب حسب انتماءاتهم. كذلك تداعت أسس الاقتصاد وتوقفت السياحة ومعها الاستثمارات الاجنبية، فيما اضرب ٣٠٠ الف عامل عن العمل، وتطاولت صفوف المنتظرين امام محطات الوقود.

على صعيد آخر، فان الصرب الارثوذكس يوجه أخص لا يكتمون مخاوفهم من المد الاسلامي في البوسنة، وهم الذين يعتبرون انفسهم «درع اوروبا» ضد الاسلام. بينما ممثلو المسلمين لا يخفون رغبتهم في ان يعيشوا في ظل مجتمع اسلامي يقبلونه على اساس ديمقراطي يتجاور مع الآخرين في تعاون وسلام. غير ان كلا من الصربيين والكروات يرفضون تلك الدعوة، ويردد بعضهم ان مقاومة «الجهاد الاسلامي» هي احد الأسباب الرئيسية التي تدعوهم الى مواصلة التسلح والاستنفار.

ازاء ذلك، فقد لجأ المسلمون البوسنويون بدورهم الى تسليح انفسهم، خصوصا في ظل الاعتقاد السائد بأن قوات الشرطة في جمهوريتهم يسيطر عليها الصرب، شأنها شأن الجيش الوطني. الذي يذهب كثيرون الى انه يزود الصرب بالاسلحة، ويحجم عن كبح جماح متطرفيهم.

في هذا الصدد، نقل عن الشيخ أدم عمريكا امام مسجد نيفيسينيا التي تعتبر احد معاقل الصرب في الهرسك، قوله: لسنا اكرادا، ولن نغادر ارضنا، واذا اراد الصربيون الحرب، فسيكون لهم مايريدون».

وليس الشيخ أدم وحده الذي يتحدث بهذه اللغة، فالسياسيون المسلمون يقولون كلاما مماثلا، فقد نقل عن الرئيس علي عزت بيجوفيتش قوله: «لن يبتلعنا الصرب او الكرواتيون، فلدينا الاسلحة، وسنقاتل دفاعا عن انفسنا».

ان اعين الملايين الستة من المسلمين اليوغوسلاف ترقب بقلق بالغ مصير البوسنة والهرسك، ازاء احتمالات التفكيك التي يتعرض لها الاتحاد اليوغوسلافي، بسكانه الذين يبلغ تعدادهم ٢٤ مليون نسمة، وفيما عبر عنه ممثلو المسلمين، فانهم يقفون بما يملكون من قوة مع استمرار الاتحاد في ظل اية صيغة دستورية مرنة يرضي بها الجميع. حتى اعلن الرئيس البوسنوي علي عزت انه يضع توقيعه على اي اتفاق يكون مقبولا من فرانسوا تودجمان (رئيس كرواتيا) وسلوبودان ميلوسيفيتش (رئيس الصرب).

ولكن اذا وقعت الواقعة ووجد الصرب والكروات، ان انهاء الحرب الاهلية بينهما لا يكون الا بترسيم جديد للحدود، يمزق البوسنة ويلغي كيانها السياسي، فان المسلمين لن يكون امامهم سوى خيار القتال دفاعا عن بقائهم واستمرارهم.

ثمة اشارات تقول إن الجماعة الاوروبية تريد انهاء القتال بأية وسيلة، حتى وان كان ذلك على حساب تقسيم البوسنة والهرسك.

وهي اشارات قد تصبح مجرد شائعة تكذب على الفور اذا تحركت اية ارادة اسلامية او عربية، معلنة الاحتجاج والرفض، وملوحة بأية صورة من صور الضغط حتى ولو تمثل ذلك في تقليص التمثيل الدبلوماسي او التهديد بقطع العلاقات.

وقد تتحول الى حقيقة اذا ما اطمأنت الجماعة الاوروبية الى ان العرب والمسلمين مشغولون بأمور اخرى، ومنصرفون عن الذي يجري في يوغوسلافيا.

نريد ان نخيب املهم مرة، ونثبت لهم ان لدينا غيرة حقيقية على ديننا وعلى اتباعه - اخوتنا - المعذبين والمقهورين.

هل من مبادر ؟! ■

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية